عُمدة التفسِير

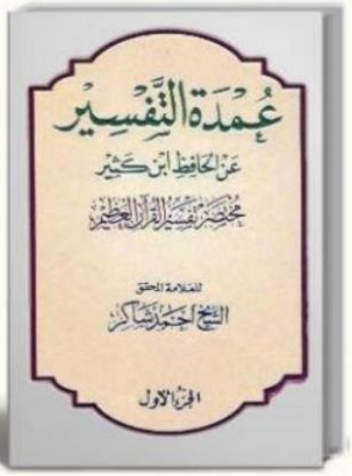

عن الحافظ ابن كثير

مختصر تفسير القرآن العظيم

شرح الشيخ

د. محمد بن غالب العمري -حفظه الله-

قناة رسائل إماراتية العلمية

عُمدَة التفسِير

عَن الحَافظِ ابن كَثِير

مُختصَر تفسير القُرآن العَظِيم

الشيخ/ محمد بن غالب العمري - حفظه الله -

الدرس الثالث

(سورة الفاتحة من ص 54 إلى 63)

ضمن الدروس المقامة بمسجد أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - في دبي

برعاية مركز رياض الصالحين، والمسجلة على الرابط:

https://bit.ly/2xJhoRn

http://www.baynoona.net/ar/tree/3491

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

المتن

قال الإمام ابن كثير: الكلام على تفسير الفاتحة:

الاستعاذة: قال الله – تعالى -: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ – ٩٨]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ – ٣٦].

الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، أما بعد،

فهذا شروع من المؤلف – رحمه الله رحمةً واسعة – إلى الكلام عن الفاتحة، وابتدأ في ذلك بالكلام عن الاستعاذة، والاستعاذة هي – في الحقيقة –: الهروب من الشيء تخافه إلى من يعصمك منه، إذا كان هناك

هروب من شيء والتجاء إلى مَن يعصمك مِن هذا الشيء فهذه تسمى استعاذة، فيكون – إذن – معناها: أمتنع بالله وأعتصم به وألتجئ إليه، والاستعاذة فيها تحقيق التوحيد؛ لأن فيها لجوءٌ إلى الله –سبحانه وتعالى–، ورجوعٌ إليه، وإعتصامٌ به –سبحانه–.

فقال: قال الله – جل وعلا –: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠٠].

وهنا أمر الله – جل وعلا – بالاستعاذة، وأخبر – سبحانه وتعالى – أنه سميع لمن استعاذه، ويتضمن هذا السمع أيضًا إجابة الله – سبحانه وتعالى –، فمن استعاذ بالله أعاذه الله، ومن التجأ إليه كفاه الله – سبحانه وتعالى–؛ ولذلك لا تكون الاستعاذة إلا بالله، فلا يجوز الاستعاذة بمخلوق؛ لأن الاستعاذة فيها: اللجوء إلى الله، وفيها الإمتناع به – سبحانه –، وفيها كذلك الاعتصام به، وهذا لا يكون أبدًا فى حق المخلوق.

ثم ذكر قول الله – جل وعلا –: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾[المؤمنون:٩٦]، وقول الله – جل وعلا –: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ الآية [فصلت: ٣٤].

المتن

فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو: أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه؛ ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة.

الشرح

هنا قال: (فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة فى معناها)، يعني: فيما تضمنت، هى تضمنت معنيين:

- تضمنت معنى مصانعة العدو الإنسي، يعنى مداراته والإحسان إليه، قال: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

- وتضمنت أيضا أمرًا ثالثًا فيما يتعلق بالعدو الإنسى؛ لأن – هي – الآية تحدثت عن الإنس وتحدثت عن الشياطين، كيف تتعامل مع الإنس؟ قال: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وفيما يتعلق بشيطان الجن أو العدو الشيطاني بالاستعاذة منه.

فقال الإمام ابن كثير – رحمه الله –: (يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه).

نقول: وهناك أيضًا أمرٌ ثالث وهو: الإعراض عنه، كما هو مذكور فى الآية الأولى، فإن التعامل مع الإنسي إما أن يكون بالإحسان إليه، وإما أن يكون بمداراته، فإن لم ينفع ذلك فبالإعراض عنه، وأما التعامل مع العدو الشيطاني فلا يكون إلا بالاستعاذة؛ لأنه لا يُدارى، هو عدو، ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦].

إذن المطلوب من الإنسان أن يعادي الشيطان، المطلوب منه أن يتخذ الشيطان عدوًّا، لا يدخل فى تعامله مع الشيطان الدفع بالتى هى أحسن، ولا يدخل الترفُّق، ولا نحو ذلك؛ لأنه عدو للمسلم، وهو شر عليه، ولا يأتي بخير أبدًا، فلا يدفع عنه، أو يدافع عنه، أو كما يقول بعض الناس: كل شيء نحمِّله الشيطان، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

المتن

ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعةً ولا إحسانًا، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم؛ لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل، كما قال تعالى: ﴿ يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]، وقال: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقد أقسم للوالد آدم: إنه لمن الناصحين، وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٨-٩٩]؟!

الشرح

إذن لا يكون التعامل مع الشيطان إلا بالاستعاذة منه وبمعاداته، هذا هو التعامل الصحيح؛ ولذلك يقول الشاعر مفرِّقًا بين التعامل مع الإنسي والتعامل مع العدو الشيطاني، قال:

فما هما إلا الاستعاذة ضارعًا ... أو الدفع بالحسنى هما خير مطلوبي

فذاك دواء الداء من شر ما يُرى - من الذى يُرى؟ الإنسي - ... وذاك دواء الداء من شر محجوبي

المحجوب عنا هو الشيطان، الشيطان دفْعه بعداوته، وبالاستعاذة منه، وبالالتجاء إلى الله - سبحانه وتعالى -، وأما الإنسان فإنه يُدفع بالتى هى أحسن، والإنسان يأمر بالعُرف، ويُداري، ويتلطف؛ لأنه

قريب منه، ولأن من طبعه الموالاة والمصافاة، ولأنه لم يأمرنا الله – جل وعلا – بأن نتخذه عدوًّا، وعلى العكس من ذلك أمر الله – جل وعلا – بالإحسان إليه، ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

المتن

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، أي: إذا أردت القراءة، كقوله – تعالى –: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦]، أي: إذا أردتم القيام.

الشرح

يعني المشهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس، وأعظم ما يسعى فيه الشيطان أن يشوِّش على العبد فى قراءته للقرآن، في قراءته لكلام الله – جل وعلا –، فيأتيه ويحاول أن يدافع عنه التدبر، وأن يدفع عنه النظر والتلاوة فيشغله؛ فلذلك أُمر الإنسان بالاستعاذة قبل تلاوته، فقال الله – عز وجل –: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، أي إذا أردت القراءة، كما يقول: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ [المائدة: ٦]، أي: إذا أردتم القيام.

وقال بعض أهل العلم: فى الآية تقديم وتأخير، والمعنى: فاستعذ بالله إذا قرأت القرآن، قالوا: ومثل هذا قول الله – جل وعلا –: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم: ٨]، والمعنى: أى تدلى ثم دنا، فهو أسلوب من أساليب العرب، وأقوى الوجهين هو الأول في أن المراد إذا أردت.

المتن

والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله – ﷺ – بذلك؛ فروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري، قال: كان رسول الله – ﷺ – إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبَّر، قال: ((سبحانك اللّٰهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك))، ويقول: ((لا إله إلا الله)) ثلاثًا، ثم يقول: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من هَمْزِه، ونَفْخِه، ونَفْثِه))، وقد رواه أهل السُّنن الأربعة، وقال الترمذي: هو أشهر شيء في هذا الباب، وقد فُسِّر الهمز: بالموتة وهي الخنق، والنفخ: بالكبر، والنفث: بالشِّعر.

الشرح

يعني ما أخرجه أحمد، والحديث صحيح، ((كان النبي – ﷺ – إذا قام من الليل استفتح صلاته ثم كبر، وقال: " سبحانك اللّٰهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك "))، يقول بعض أهل العلم: (دعاء الاستفتاح هذا هو أفضل الأدعية؛ لأنه محض ثناء على الله)، الإنسان ما يطلب فيه شيء، (سبحانك اللّٰهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك)، كله ثناء على الله، بينما في الأدعية الأخرى يَطلب، (اللّٰهم باعد بيني وبين خطاياي)، وكلما كان الدعاء هو محض ثناء على الله كان أفضل و أعظم؛ ولذلك ((أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا و النبيون من قبلي: " لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير "))، سماه الله دعاء، وجعله النبي –ﷺ– دعاء، وهو ليس فيه طلب.

فأفضل الدعاء ما كان ثناء على الله – سبحانه وتعالى –، ولذلك يعطى الإنسان مبتغاه إذا صلى على النبي – ﷺ –، قال: ما أجعل لك من صلاتي؟ فقال:أجعل لك كل صلاتي، قال: ((تُكفى))، أو كما جاء في الحديث.

فذكر هنا أنه كان يقول: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه، ونفخه، ونفثه)، ويجوز: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)؛ لوروده كذلك.

قال: (وقد رواه أهل السنن)، (وقد فُسِّر الهمز: بالموتة وهي الخنق)، وهذا أحد التفاسير، وفُسِّر – أيضًا – الهمز بالوسوسة؛ بالوسواس الذي يستعمله الشيطان مع بني آدم، (والنفخ: بالكِبْر، والنفث: بالشِّعر.)؛ ولذلك لأن يمتلئ جوف الإنسان ريحًا أهون من أن يمتلئ شِعرًا؛ ولأن الشِّعر فيه أحيانا من التكبر والافتخار ونحو ذلك من المعاني، وإلَّا فإن الشِّعر كلامٌ – كما يقال – حَسَنه حَسَن و قَبيحه قبيح، ولكن أن يُشغل الشِّعر الإنسان عن صلاته وعبادته وعن قراءته للقرآن فلا شك أنه مذموم.

المتن

كما روى أبو داود وابن ماجه عن ابن جبير بن مطعم، قال: ((رأيتُ رسول الله – ﷺ – حين دخل في الصلاة، قال: " الله أكبر كبيرًا – ثلاثًا –، الحمد لله كثيرًا – ثلاثًا –، سبحان الله بكرةً وأصيلًا – ثلاثًا –، اللّهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه "، قال عمرو بن مرة: وهمزُهُ: الموتة، ونفخه: الكِبْر، ونفثه: الشِّعر.

وروى ابن ماجه عن ابن مسعود عن النبي – ﷺ – قال: ((اللّهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفثه))،قال: همزه: الموتة، ونَفْثُه: الشِّعر، ونفخه: الكِبْر.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أُبَيِّ بن كعب، قال: ((تلاحى رجلان عند النبي - ﷺ -، فتَمزَّع أنفُ أحدهما غضبًا، فقال رسول الله - ﷺ -: " إني لأعلم شيئًا لو قاله ذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "))، وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة.

وروى الإمامُ أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في اليوم والليلة، عن معاذ بن جبل، قال: ((استَبَّ رجلان عند النبي - ﷺ -، فغضب أحدهما غضبًا شديدًا حتى خُيِّل إليَّ أن أحدهما يَتَمزَّع أنفه من شدة غضبه، فقال النبي - ﷺ -: " إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب "، فقال: ما هي يا رسول الله؟ قال: " يقول: اللّهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم "، قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى، وجعل يزداد غضبًا))، وهذا لفظ أبي داود، وقال الترمذي: مرسل، يعني أن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلقَ معاذ بن جبل، فإنه مات قبل سنة عشرين.

قلت: وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أُبَيِّ بن كعب - كما تقدم -، وبلغه عن معاذ بن جبل، فإن هذه القصة شهدها غير واحد من الصحابة - رضي الله عنهم -.

فروى البخاري: عن سليمان بن صُرَد، قالَ: ((استبَّ رجلان عند النبي - ﷺ - ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضبًا قد احمر وجهه، فقال النبي - ﷺ -: " إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله - ﷺ -؟ قال: إني لست بمجنون))، ورواه مسلم، وأبو داود، والنسائي.

الشرح

في الحقيقة حديث البخاري هو أولى بالتقديم؛ لكونه في الصحيحين، فهو أولى من تقديم حديث أبي يعلى، وكذلك من حديث أبي داوود والترمذي، فالحديث يدل أيضًا على أدب من الآداب التي ينبغي أن يتمسك بها المسلم وهو حال غضبه: أن يستعيذ من بالله من الشيطان الرجيم،وقد جاء أيضًا أن يتوضأ، وإذا كان قائمًا أن يجلس، فقال العلماء: (يغير وضعه الذي هو عليه؛ لأن هذا أدعى لذهاب الغضب عنه)، وعمومًا كل من التجأ الى الله – جل وعلا – واستعاذ بالله صادقًا ألجأه الله– جل وعلا –، ولذلك قال العلماء: (امرأت عمران لما استعاذت بالله– سبحانه وتعالى – أن يحفظها وذريتها وأن يعصمها من الشيطان الرجيم، استجاب الله–سبحانه وتعالى – لهذا الدعاء)، ولذلك جاء الحديث في مسلم أن النبي– ﷺ – قال: ((ما من مولودٍ إلا نَخَسه الشيطان – قال – فيستهل صارخًا –أي: يبكي أول مايبدأ – إلا ابن مريم وأمه))، قال أهل العلم: (لأن الله – جل وعلا – استجاب لامرأت عمران: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦]، فلما استجاب الله – سبحانه وتعالى – لها هذا الدعاء أعاذها من الشيطان، فلم يكن له تأثير لا على مريم ولا على عيسى– عليه السلام –).

المتن

فصلٌ: ومعنى « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »، أي: أستجير بِجَناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فِعل ما أُمرت به، أو يَحُثَّني على فِعل ما نُهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله، ولهذا أمر الله – تعالى – بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه؛ ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن؛ لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛

لأنه شرير بالطبع، ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة.

الشرح

هنا أعاد ابن كثير- رحمه الله - الكلامَ السابق،أليس كذلك؟ يعني هو تقدم قريبًا هذا الأمر، وهذا في الحقيقة يؤيد مَن يقول أن ابن كثير كان لا زال ينظر في كتابه، فكأنه لم ينتهِ منه، وجعله على مسودَّة، فربما يحصل مثل هذا التكرار، لذلك الشيخ أحمد شاكر- رحمه الله - في تهذيبه حَذَف الآيات وتكرارها؛ لأنها في الصفحة السابقة، فهذا يدل على أن ابن كثير كان أيضا ينظر في كتابه فَيَضيف، أو ربما عدَّل، أو كذا؛ فيحصل شيء من هذا التكرار، وإلا فإن في اللفظ السابق قال: (فهذه ثلاث آيات ليس لهنَّ رابعةٌ في معناها)، وقال هنا: (وهذا المعنى في ثلاث آياتٍ من القرآن لا أعلم لهنَّ رابعة)، وهذا لا شك أنه بسبب النظر في التفسير، والحاجة إلى تنقيحه، وإضافة أمر إليه أو حذف، أو نحو ذلك.

ويؤيد هذا ما قاله بعض أهل العلم من أن ابن كثير قد يحيل إلى أمرٍ قادم ثم لا يوجد، فيقول: وسَيُذكر في كذا، ثم لم يذكره، وهذا ربما لأنه لم ينتهِ منه، فوافته المنية قبل إتمام التفسير، والله أعلم.

المتن

والشيطان في لغة العرب مشتق من شَطَن إذا بَعُد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بِفِسْقِه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط؛ لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب، وقال سيبويه: (العرب تقول: تشيطن فلان إذا فَعَلَ فِعْلَ الشيطان، ولو كان مِن شاط لقالوا: تشيَّط).

الشرح

تشيطن أي: بَعُدَ فلان، وهذا معناها تشيطن.

المتن

والشيطان مشتق من البُعد على الصحيح؛ ولهذا يسمون كل ما تمرَّد من جني وإنسي وحيوان شيطانًا، قال الله – تعالى –: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفي مسند أحمد، عن أبي ذر قال: ((قال رسول الله – ﷺ –: " يا أبا ذر، تعوَّذ بالله من شياطين الإنس والجن "، فقلت: أَوَ للإنس شياطين؟ قال: " نعم ")).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر – أيضًا – قال: ((قال رسول الله – ﷺ –: " يقطع الصلاة المرأة، والحمار، والكلب الأسود "، فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟، فقال: " الكلب الأسود شيطان ")).

وروى الطبري أن عمر بن الخطاب ركب برْذونًا، فجعل يتبخْتر به، فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترًا، فنزل عنه، وقال: (ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرتُ نفسي)، وإسناده صحيح.

الشرح

هو ذكر في حديث مسلم عن أبي ذر، قال: ((يقطع الصلاة المرأة، والحمار، والكلب الأسود))، وهذا فيه الحرص على العناية بالسُّترة في الصلاة، وأن الإنسان يدنو منها، ((إذا صلى أحدكم فليصلِّ إلى سترةٍ

وَلْيَدْنُ منها))، كما جاء في الحديث، ومرور هذه الثلاثة الأشياء بينه وبين سترته تقطع الصلاة بمعنى تبطلها على الصحيح من أقوال أهل العلم، وليس المعنى أنها تُنقصها وتُنقص أجرها، لا، تُبطلها، فإذا مرَّت المرأة - وطبعا هي الحائض لما جاء في الحديث الآخر -، المقصود بالحائض يعني: الكبيرة البالغ، فإذا مرت بينه وبين سترته فإنه يعيد الصلاة، وكذلك الحمار والكلب الأسود.

ثم ذكر ما رواه الطبري أن عمر - رضي الله عنه - ركب برذونًا، وفيه مقال.

المتن

و« الرَّجيم »: فعيل بمعنى مفعول، أي: أنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

الشرح

« الرَّجيم »: فعيل بمعنى مفعول مرجوم، وقيل: سمي مرجوم لأن الملائكة ترجمه؛ يريد أن يسترق السمع؛ فالملائكة ترجمه، فمِن هنا سُمي « رجيم »، وقيل: لأنه مطرود عن رحمة الله، فالرَّجيم: المطرود، قيل غير ذلك.

المتن

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ١]

افتتح بها الصحابةُ كتاب الله، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا: هل هي آية مستقلة في أول كل سورة؟ أو من أول كل سورة كُتبت في أولها؟ أو أنها بعض آية من أول كل سورة؟ أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها؟ أو أنها إنما كُتبت للفصل، لا أنها آية؟

الشرح

هذه المسألة قد تقدمت معنا أوأشرنا إليها، وافتتح بها الصحابة كتاب الله – جل وعلا –، هذا بالإجماع أنها يُفتتح بها كتاب الله – سبحانه وتعالى –، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل؛ لقول الله – جل وعلا –: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل: ٣٠]، واختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة؟ أو من أول كل سورة كتبت في أولها؟ أو بعض آية من كل سورة؟ أو ...، الراجح في ذلك أنها ليست آية من السُّوَر؛ و إنما هي آية مستقلة يؤتى بها للفصل بين السُّوَر على الراجح من أقوال أهل العلم، فليست هي أيضا آية من الفاتحة؛ وإنما آية يُفصل بها بين السُّوَر

المتن

أو أنها إنما كُتبت للفصل، لا أنها آية؟ على أقوال للعلماء سلفًا وخلفًا، وذلك مبسوط في غير هذا الموضع.

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس: ((أن رسول الله – ﷺ –كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾))، وأخرجه الحاكم في المستدرك.

وفي صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة: ((أن رسول الله - ﷺ - قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة، وعدَّها آية))، لكنه من رواية عمر بن هارون البلخي، وفيه ضعف، عن ابن جُرَيْج، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عنها، وروى له الدارقطني متابعًا، عن أبي هريرة مرفوعًا، وروى مثله عن علي وابن عباس وغيرهما.

الشرح

ولا يصح هذا الحديث.

المتن

وممن حُكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعلي، ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبير، ومكحول، والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل - في رواية عنه -، وإسحاق بن رَاهوَيه، وأبو عبيد القاسم بن سلام - رحمهم الله -.

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما: " ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور "، وقال داود: " هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها "، وهذه رواية عن الإمام أحمد، وحكاه أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة.

هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا، فأمَّا ما يتعلق بالجهر بها فمُفرَّعٌ على هذا.

الشرح

(مُفرَّعٌ على هذا) معنى هذا أن من رآها أنها آية من الفاتحة فإنه يجهر بها، ومن لا يرى أنها آية من الفاتحة

فإنه لا يجهر بها، والأحاديث التي وردت أن النبي - ﷺ - صلَّى، وأبو بكر صلَّى، وعمر، وكانوا لا يجهرون بـ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ١] كما في بعض الأحاديث تصريحًا، وفي بعضها كانوا يقرؤون بـ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، لم يذكر الراوي البسملة، فقالوا: هذا دليل، وهذا ما ذكره الشيخ ابن عثيمن - رحمه الله - أن هذا دليل على أنها ليست آية من الفاتحة، لو كانت آية من الفاتحة لكان الجهر بها، ولماذا تترك أو يُسَرُّ بها؟ إلا لأنها آية منفصلة؛ يراد بها الفصل بين السُّوَر، حتى تعرف أن هذه السورة انتهت، وأنك ستستأنف سورة أخرى؛ فتأتي بالبسملة للفصل بينهما، وهو الراجح - إن شاء الله - لِلَّذي عليه جماعة مِن أهل العلم، ومن المعاصرين الشيخ ابن باز، وابن عثيمين، وغيرهم.

المتن

فمَن رأى أنها ليست مِن الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا مَن قال: إنها آية مِن أولها.

وأمَّا مَن قال بأنها مِن أوائل السور فاختلفوا؛ فذهب الشافعي إلى أنه يُجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف مِن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفًا وخلفًا، فجَهَر بها مِن الصحابة: أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، ونقله الخطيب عن: سعيد بن جبير، وعِكْرِمة، وأبي قِلَابَة، والزهري، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم.

الشرح

يعني الذين جهروا بها، قال أهل العلم: " هو لأحد أمرين: إما لبيان الجواز في ذلك "، يعني يجوز الجهر بها؛ أي لم يأتِ المنع، وإنما جاء وصف صلاة النبي - ﷺ - أنه كان لا يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: " أو الأمر الثاني وهو: تعليم الناس أن البسملة تُقال قبل الفاتحة ".

يعني لا يقرأ الإنسان مباشرة بـ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، وإنما يبسمل.

والجهر فيما حقَّه السر، أو فيما السُّنة فيه السر، قد يُفعل لأجل ذلك، كما فعل ابن عباس – رضي الله عنهما – في صلاة الجنازة؛ فإنه جهر بالفاتحة، مع أن السنة فيها الإسرار؛ وذلك حتى يُعلِّم الناس، فهذا يكون مِن باب التعليم، ولا شيء في ذلك.

والشافعي – رحمه الله – مِن أحرص الناس على الدليل، حتى قال: " إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي ".

وكان البيهقي – رحمه الله – إذا دافع عنه في مسألةٍ رجَّح فيها خلاف قول الشافعي المنقول عنه، يعني أتى بقول آخر فرجَّحه، قال: (وهو قول الشافعي؛ لأن الشافعي قال: " إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي ")، فيجعله مِن هذا الباب.

وحقيقة لا، عند تحقيق المسائل لا، ينبغي أن الذي يُقال فيه: (هو قول الشافعي)، هو ما نُقل عن الشافعي، وبلا شك أن الأئمة كانوا أحرص الناس على الدليل.

فالشاهد: أن ما ورد عن بعض الصحابة أو غيرهم مِن الجهر يُحمل على ما ذُكر.

المتن

وروى أبو داود والترمذي، عن ابن عباس: أن رسول الله – ﷺ – كان يفتتح الصلاة بـ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾، ثم قال الترمذي: وليس إسناده بذاك.

الشرح

نعم، هو لا يصح، لا يصح هذا الحديث.

المتن

وقد رواه الحاكم في المستدرك، عن ابن عباس قال: كان رسول الله – ﷺ – يجهر بـ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، ثم قال: صحيح.

وفي صحيح البخاري، عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبي - ﷺ -، فقال: كانت قراءته مدًّا، ثم قرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، يمد ﴿ بِسْمِ اللَّهِ)، ويمد ﴿ الرَّحْمَنِ)، ويمد ﴿ الرَّحِيمِ).

وفي مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرك الحاكم، عن أم سلمة، قالت: كان رسول الله - ﷺ - يقطع قراءته: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١). الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢). الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ١-٤].

وقال الدارقطني: إسناده صحيح. وروى الإمامُ الشافعي، والحاكم في المستدرك، عن أنس: أن معاوية صلى بالمدينة، فترك البسملة، فأنكر عليه مَن حضر مِن المهاجرين ذلك، فلما صلى المرة الثانية بسمل.

وفي هذه الأحاديث، والآثار التي أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها، فأما المعارَضات والروايات الغريبة، وتطريقها، وتعليلها، وتضعيفها، وتقريرها، فله موضع آخر.

وذهب آخرون إلى أنه لا يُجهر بالبسملة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل، وطوائف مِن سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة، والثوري، وأحمد بن حنبل.

وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ البسملة بالكلية، لا جهرًا ولا سرًّا، واحتجوا بما في صحيح مسلم، عن عائشة - رضي الله عنها -، قالت: كان رسول الله - ﷺ - يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وبما في الصحيحين، عن أنس بن مالك، قال: صلَّيْتُ خلف النبي - ﷺ -، وأبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بـ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢].

ولمسلم: لا يذكرون ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ١] في أول قراءةٍ ولا في آخرها.

ونحوه في السنن عن عبد الله بن مُغَفَّل – رضي الله عنه –.

فهذه مآخذ الأئمة – رحمهم الله – في هذه المسألة، وهي قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة مَن جهر بالبسملة ومَن أسر، ولله الحمد والمنة.

الشرح

يعني الرواية التي تدل على القول الأخير، وهي: أنهم كانوا لا يجهرون بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، وهذا يرد على مَن يقول: أنه لا يُقرأ فيها لا بالجهر ولا في السر؛ لأن المراد مِن الأحاديث الواردة هي عدم الإجهار بها فقط، عدم الجهر بها، وأما كونه يُسر بها، لا، فهذا وارد.

ثم أحسن الإمام ابن كثير – رحمه الله – وكأنه يريد أن يُلَيِّن الأمر عند طلاب العلم، حتى لا يحصل شيء مِن التعصب لأحد الأقوال، قال: " فهذه المسألة قريبة "، يعني مسألة يسيرة لا يكون فيها نزاع؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة مَن جهر بالبسملة ومن أسر.

إذن ليس هناك مَن قال ببطلان الصلاة؛ حتى يكون للخلاف فيها أثر كبير، فالمسألة يسيرة.

وعمومًا مسائل الفقه، ولا سيما المسائل الاجتهادية فيها، فإنه لا يُنكِر فيها أحد الطرفين على الآخر، أو أحد أصحاب القول على أخيه مِن القول الآخر، فإن أهل العلم قرروا في قاعدةٍ في هذا الباب: " أن لا إنكار في مسائل الاجتهاد "، ومسائل الاجتهاد إما أن تكون لكل قولٍ دليل يستند إليه فتختلف في ذلك الأفهام، أو أن لا يكون لأحدهم دليلًا في ذلك فيكون النظر فيه إلى القياس ونحوه، فلا إنكار في مثل هذه المسائل، وهذا مُتعلق بالمسائل الفرعية الفقهية، ولا تصح قاعدة: " لا إنكار في مسائل الخلاف "؛ لأنه ليس كل خلافٍ معتبر

وليس كل خلافٍ جاء معتبرًا إلا خلافٌ له حظٌّ مِن النظر

فإذا كانت المسألة بين قياسٍ وبين نصٍّ فإن النص يُقدَّم، ولا عبرة بالقياس هنا.

وهذا الأمر مما لابد أن يتنبه له طلاب العلم، وأن لا تؤخذ بعض المسائل الفقهية كما تؤخذ المسائل العقدية، فيحصل فيها ولاء وبراء، فإن هذه المسائل، واختلافات العلماء تكون هي محل نظر، فمن أخذ بهذا القول واقتنع بدليله دون هوًى، وجرَّد نفسه عن الهوى، وعن تتبُّع الرخص أو ما ترغب به النفوس؛ صحَّ له ذلك.

وهذا الأخذ بأحد القولين جائز في هذا الخلاف الذي هو خلاف اجتهاد فيما يتعلق بالفقه، أما العقيدة فلا خلاف فيها؛ لأن أصول الاعتقاد مجمَعٌ عليها، لم يختلف فيها الصحابة، ولا اختلف فيها الأئمة مِن بعدهم إلى عصرنا.

فلا يصح أن يُقال: (يصح الاجتماع مع اختلاف العقائد)؛ فإن هذه قاعدة فاسدة، أصَّلها البنا بقوله: " نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه "، ولا يصح مثل هذا التأصيل أبدًا.

المتن

فصلٌ في فضلها: روى الإمام أحمد في مسنده: عن عاصم، قال: سمعتُ أبا تميمة يحدث عن رديف النبي - ﷺ -، قال: عُثر بالنبي - ﷺ -، فقلتُ: تَعِس الشيطان. فقال النبي - ﷺ -: ((لا تقل: تعس الشيطان؛ فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله؛ تصاغر حتى يصير مثل الذباب))، هكذا وقع في رواية الإمام أحمد، وقد روى النسائي في اليوم والليلة، وابن مردويه عن أسامة بن عمير قال: كنتُ رديف النبي - ﷺ - فذكره، وقال: ((لا تقل هكذا؛ فإنه يتعاظم حتى يكون كالبيت، ولكن قل: بسم الله؛ فإنه يصغر حتى يكون كالذبابة)).

فهذا مِن تأثير بركة بسم الله؛ ولهذا تُستحب في أول كل عمل وقول، فتُستحب في أول الخطبة لما

جاء: ((كل أمر لا يُبدأ فيه " بسم الله الرحمن الرحيم " فهو أجذم)).

الشرح

قال: " فهذا مِن تأثير بركة بسم الله "؛ لأنه ابتدأ باسم الله – سبحانه وتعالى –؛ فكان في ذلك مِن التبرك به، ومن التعظيم لله – جل وعلا –.

ولذلك قولنا: (بسم الله) أو (بسم الله الرحمن الرحيم) فيه إقامة التوحيد لله – جل وعلا –، فهو التجاء إلى الله – سبحانه وتعالى –، التجاءٌ إلى الله، وتبركٌ باسمه – سبحانه وتعالى –.

قال: "فتُستحب في أول الخطبة لما جاء: ((كل أمر لا يُبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم، فهو أجذم)) ".

هذا الحديث الصواب ضعفه، سواءً بهذا اللفظ أو بغيره مِن الألفاظ؛ لأنه جاء فيه عدة ألفاظ؛ فحكم عليه العلماء بالاضطراب.

جاء: ((كل أمرٍ لا يُبدأ فيه بالحمد))، ((كل أمرٍ لا يُبدأ فيه بالبسملة))، فالحديث لا يصح، جميع الطرق ضعيفة لا تصح.

المتن

وتستحب البسملة عند دخول الخلاء؛ لما ورد مِن الحديث في ذلك، وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد والسنن، مِن رواية أبي هريرة، وسعيد بن زيد، وأبي سعيد مرفوعًا: ((لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه))، وهو حديث حسن.

ومن العلماء مَن أوجبها عند الذكر هٰهنا، ومنهم مَن قال بوجوبها مطلقًا.

الشرح

قال: " وتستحب البسملة عند دخول الخلاء؛ لما ورد مِن الحديث في ذلك ".

الحديث عند الطبراني، وعند الدارقطني، لكن لا يصح بلفظ البسملة، الوارد: ((اللّٰهم إني أعوذ بك مِن الخبث والخبائث)) هذا صحيح، وأما البسملة في أوله فلا يصح، لا يصح ذكر البسملة فيه.

ثم قال أيضًا: " تستحب في أول الوضوء "؛ لقول النبي - ﷺ -: ((لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه)) وهل هي واجبة أو مستحبة؟

الصحيح مِن أقوال أهل العلم: " أنها مستحبة "؛ لأن كل مَن وصف وضوء النبي - ﷺ - لم يذكر فيه البسملة.

المتن

وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة.

الشرح

لفعله - ﷺ -؛ لأن النبي - ﷺ - عندما ذبح سمى الله وذبح.

المتن

وأوجبها آخرون عند الذِّكر، ومطلقًا في قول بعضهم - كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله -.
وهكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله - ﷺ - قال لربيبه عمر بن أبي سلمة: ((قل: بسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك)).
ومن العلماء مَن أوجبها والحالة هذه، وكذلك تستحب عند الجماع لما في الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال: ((لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللّٰهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدًا)).

الشرح

نعم، هذه مِن المواضع كذلك التي يُقال فيها: (بسم الله).

وهناك مواضع كثيرة وردت في الأحاديث الصحيحة، مِن ذلك: التسمية عند إرادة النوم، والتسمية على الصيد، التسمية عند ركوب الدابة، وكذلك عند وضع الميت في قبره، فهذه كلها مِن المواضع التي أيضًا تُذكر فيها التسمية.

بعض أهل العلم يفرق بين قضية التسمية والبسملة، فيقولون: " ما ورد فيه البسملة، أي تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، أما ما ورد فيه التسمية فتقول: بسم الله ".

المتن

ومن هٰهنا ينكشف لك أن القولين عند النُّحاة في تقدير المتعلق بالباء في قوله: بسم الله، هل هو اسم أو فعل متقاربان.

وكلٌّ قد ورد به القرآن؛ أما مَن قدَّره باسم، تقديره: بسم الله ابتدائي، فلقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [هود: ٤١]، ومن قدَّره بالفعل فلقوله: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١]، وكلاهما صحيح، فإن الفعل لا بُدَّ له مِن مصدر، فلك أن تقدِّر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله؛ إن كان قيامًا أو قعودًا أو أكلًا أو شربًا أو قراءةً أو وضوءًا أو صلاةً، فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله؛ تبركًا وتيمنًا واستعانةً على الإتمام والتقبل، والله أعلم.

الشرح

يعني المتعلق بالباء في قوله: (بسم الله)، ما هو؟

- من قال: (إنه اسم)، فهذا واضح في قوله: (بسم الله)، وللتبرك باسم الله -سبحانه وتعالى-.
- ومن قال: (إنه فعل)؛ فلأن المراد به المصدر الذي يفعله الإنسان؛ يعني بسم الله أكتب كتابةً، بسم الله آكلُ أكلًا، بسم الله أقرأ قراءةً، وهذا على أن التقدير هنا للمتعلق بالباء هو فعل.

وكلا الوجهين صحيح وتحتملها اللغة، والمقصود في ذلك هو: الشروع في الشيء باسم الله - سبحانه وتعالى -.

المتن

﴿ الله ﴾: عَلَمٌ على الرب - تبارك وتعالى -، ويُقال: إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات.

الشرح

هذه المسألة: (أنه الاسم الأعظم) مسألة خلافية، واختلف العلماء فيها إلى أربعة عشر قولًا كما ذكر ذلك الحافظ في الفتح.

فهل اسم الله الأعظم؟

- بعضهم قال: " اسم الله الأعظم شيءٌ لا يُعلم "، ما يُعلم.
- وبعضهم قال: " الله ".
- وبعضهم قال: " الحي القيوم "، وغير ذلك مِن الأقوال.

وأقوى الأقوال في ذلك: قول مَن قال: " أنه الله، أو الحي القيوم "، وعلى اختيار أحد القولين جمعٌ مِن المحققين مِن أهل العلم.

ومن قال: إن الله - جل وعلا -، اسم (الله) هو الاسم الأعظم، قالوا: " لأنه ذُكر في القرآن في

سبعة وتسعين وثلاثمائة وألفين موضع، بينما ذُكر غيره في موضعين أو ثلاثة، فقالوا: لأجل ذلك هو اسم الله الأعظم "؛ لأنه أكثر ما ذُكر في القرآن، في ألفين وثلاثمائة وسبعة وتسعين.

وقيل: " لأن جميع الأسماء تعود إليه، فهو الاسم الأعظم "، فهذا قول مما اختاره أهل العلم.

المتن

كما قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢ – ٢٤].

الشرح

الشاهد مِن الآيات: أنه قدَّم اسم الله، ثم أردف ذلك بالأسماء الأخرى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي ..... ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٣]، فقالوا: " أن الأسماء جميعًا تعود إلى هذا الاسم؛ فلذلك هو اسم الله الأعظم ".

المتن

فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وفي الصحيحين، عن أبي هريرة: أن رسول الله – ﷺ – قال: ((إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، مَن أحصاها دخل الجنة))، وجاء تعدادها في رواية الترمذي وابن ماجه، وبين الروايتين اختلاف زيادات ونقصان.

الشرح

الحديث صحيح: ((إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، مَن أحصاها دخل الجنة))، وأما التعداد لها فلا يصح.

والمقصود بالإحصاء هنا كما قال أهل العلم؛ هو: " حفظها، والعمل بمقتضى هذه الأسماء، وفهم معانيها ".

إذن ثلاث أمور:

- تُحفظَ هذه الأسماء.
- أن تُعرفَ معانيها.
- أن يُعمل بمقتضى الاسم؛ فتتقرب إلى الله - جل وعلا -، وتطلب منه المغفرة؛ لأنه الغفور، وتتوب إليه؛ لأنه التواب، وتطلب منه الرزق؛ لأنه الرزاق، ونحو ذلك.

المتن

وهو اسمٌ لمْ يُسمَّ به غيره - تبارك وتعالى -؛ ولهذا لا يُعرف في كلام العرب له اشتقاق مِن ((فَعَل يَفعل))، فذهب مَن ذهب مِن النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له.

وقد نقله القرطبي عن الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم، ورُوي عن الخليل وسيبويه: أن الألف واللام فيه لازمة. قال الخطابي: ألا ترى أنك تقول: يا الله، ولا تقول: يا الرحمن، فلولا أنه مِن أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام.

الشرح

لأنه حال النداء لا تُذكر الألف واللام، فلا يُقال: يا العباس، أو يا الزبير، وإنما يُقال: يا زُبير، يا

عباس، يا حارث، يا مُنذر، فتسقط الألف واللام، قالوا: وأما هنا فلم تسقط الألف واللام، فهي أصيلةٌ في اسم الله – سبحانه وتعالى –.

المتن

وقيل: إنه مشتق، واستدلوا عليه بقول رؤْبَة بن العَجّاج:

للـه درّ الغانيـات المُـدَّهِ سَبَّحـن واسترجعـن مِـن تألُّـهِ

الشرح

نعم، وهو الصحيح، الصحيح أنه اسم مشتق، وأصله مِن الإله، وما معنى مُشتق؟

معنى مُشتق: أنه يدل على صفة، وأسماء الله – جل وعلا – مشتقة؛ لأنها أعلامٌ وأوصاف؛ أعلامٌ باعتبار ما دلت عليه مِن الذات، وأصافٌ باعتبار ما دلت عليه مِن المعاني.

اسم (الرحمن) يدل على صفة الرحمة، اسم (الغفور) تُشتق منه صفة المغفرة، وكل اسمٍ يدل على صفة ولا عكس، أي: ليس كل صفة تدل على اسم.

فإن قول الله – جل وعلا –: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢] لا يُثبت منه اسم (الجائي)، بينما كل اسمٍ ثابتٍ في الكتاب والسنة فإنه تُشتق منه صفة؛ فالغفور صفة المغفرة، والرحيم الرحمن صفة الرحمة، ونحو ذلك.

المتن

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر؛ وهو: التأله، مِن أله يأله إلاهةً وتألهًا، كما رُوي أن ابن عباس قرأ: ((ويذرك وَإلاهَتَك))، قال: عبادتك، أي: أنه كان يُعْبَدُ ولا يَعْبُد، وكذا قال مجاهد وغيره.

وأصل ذلك ((الإله))، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة.

الشرح

فاء الكلمة، الكلمات تعارف العلماء على أنهم يعيدونها إلى أصلها فتكون على وزن (فَعَلَ)، فألَهَ، أو ألِهَ (فَعِلَ)، فماذا يُقابل الهمز هنا؟ الفاء، يقابله الفاء مِن (فَعِل)، يُقال: ضَرَبَ (فَعَلَ)، نَصَرَ (فَعَلَ)، وهذا ما اصطلح عليه العلماء في اختيار هذه الثلاث الأحرف: الفاء، والعين، واللام.

المتن

وأصل ذلك ((الإله))، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة، فالتقت اللام التي هي عينها مع اللام الزائدة في أولها للتعريف، فأدغمت إحداهما في الأخرى، فصارتا في اللفظ لامًا واحدة مشددة، وفُخِّمت تعظيمًا، فقيل: الله.

الشرح

التقت اللام، لام إيش؟ أي كلمة؟ ما هي الكلمة؟

ألَهَ يعني، ألِه، أو أَلَهَ، التي هي عينها، ما، عين ماذا؟ عين (فَعَل)، يعني هذا تجدونه كثيرًا في كتب التفسير، تجدونه في كتب اللغة لا شك في ذلك، فهذه يتطرقونه لأنه متعلق بعلم الصرف، وعلم الصرف مِن العلوم المهمة جدًّا والتي هجرها كثير مِن طلاب العلم، فكان بعض المشايخ يقول: " علم الصرف يُبتدأ به قبل علم النحو "، علم الصرف؛ لأنه يتعلق بمبنى الكلمة، بناء الكلمة، فيُعتنى به قبل النظر في علم النحو.

المتن

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ٣]: اسمان مشتقان مِن الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة مِن رحيم، وفي كلام ابن جرير ما يُفهم منه حكاية الاتفاق على هذا.

الشرح

"رحمن أشد مبالغة مِن رحيم"، قالوا: لأن (رحمن) على وزن (فعلان)، وفعلان ملآن، ولذلك لو قيل عن رجل: إنه غضبان: يعني مليء بالغضب، غضبان، صفة فيها مبالغة.

فـ(رحمن) قالوا: " صفة تدل على المبالغة، أشد المبالغة ".

ولذلك قال بعض أهل العلم: " الرحمن: ذو الرحمة الواسعة، والرحيم: ذو الرحمة الواصلة "، الرحمن: ذو الرحمة الواسعة للجميع، وأما الرحيم: ذو الرحمة الواصلة التي تصل إلى المؤمنين - كما سيأتي -، ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، لم يقل: (وكان بالمؤمنين رحمنًا).

فإذن هي على وزن (فعلان)، فتكون فيها المبالغة، ويدل على السَّعة والامتلاء.

المتن

وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما خرَّجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول: ((قال الله – تعالى -: أنا الرحمن، خلقتُ الرحم، وشققت لها اسما مِن اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته)).

قال: وهذا نصٌّ في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق.

الشرح

يعني " هذا نصٌّ في الاشتقاق " أنها مشتقة، " فلا معنى للمخالفة والشقاق " وهذا مِن السجع اللطيف، ليس السجع المتكلف.

قالوا: " ما أفضل السجع؟ قال: ما خف على السمع، قال: مثل ماذا؟، قال: مثل هذا "، يعني هذا السجع اللطيف يكون جيد، أما التكلف في السجع كما يصنع البعض ربما في كلماته، أو محاضراته أو خطبه،

فربما تحتاج أن تأتي معك بالقاموس المحيط، أو معجم مقاييس اللغة حتى تفسر معاني كلماته التي يذكرها، فهذا مِن التكلف لا شك، وقد ذم النبي - ﷺ - هذا، قال: ((سجعٌ كسجع الكهان))، وأما السجع اللطيف الخفيف، فإن هذا معمولٌ به عند أهل العلم، في كتبهم، وفي عناوين كتبهم، وفي تآليفهم، فهذا وارد، وفي خطبهم كذلك.

المتن

قال: وإنكار العرب لاسم (الرحمن) لجهلهم بالله وبما وجب له، قال القرطبي: " قيل هما بمعنى واحد كَنَدْمان ونديم، قاله أبو عبيد "، وقيل: ليس بناء فَعْلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك: رجل غضبان، للرجل الممتلئ غضبًا، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول.

قال أبو علي الفارسي: (الرحمن) اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله – تعالى –، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق مِن الآخر، أي أكثر رحمة، ثم حُكي عن الخطابي وغيره أنهم استشكلوا هذه الصفة، وقالوا: لعله أرفق كما جاء في الحديث: ((إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، وإنه يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف)).

وقال ابن المبارك: " الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب "، وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة – رضي الله عنه –، قال: قال رسول الله - ﷺ -: ((من لم يسأل الله يغضب عليه)).

وقالوا: ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه: ٥]، فذكر الاستواء باسمه (الرحمن) ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ

رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فخصهم باسمه (الرحيم)، قالوا: فدل على أن (الرحمن) أشد مبالغة في الرحمة؛ لعمومها في الدارين لجميع خلقه، و (الرحيم) خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: " رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ".

الشرح

هذا فيه ما يعارض القول: بأن (الرحيم) مختصٌّ بالمؤمنين، وفي المسألة أقوال في ذلك.

المتن

واسمه – تعالى – ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ خاص به لم يُسَمَّ به غيره، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى بـ ((رحمن اليمامة)) كساه الله جلباب الكذب وشَهَره به؛ فلا يُقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يُضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر مِن أهل المدر، وأهل الوبر مِن أهل البادية والأعراب.

الشرح

هنا يقول: أن اسم (الرحمن) لم يُسمَّ به غيره، يعني لم يرد التسمية، ولذلك الأسماء، هناك أسماء لا يجوز التسمية بها إجماعًا، كاسم (الله)، أو اسم (الرحمن)، أو اسم (الرب)، لا يُقال: فلان اسمه (الرب)، أو فلان اسمه (الله)، أو فلان اسمه (الرحمن) هذا بإجماع العلماء، وأما غير ذلك فسيأتي ذكره.

المتن

وأما (الرحيم) فإنه – تعالى – وصف به غيره، حيث قال: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ

عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، كما وصف غيره بذلك مِن أسمائه كما في قوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢].

والحاصل: أن مِن أسمائه – تعالى – ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم (الله) و (الرحمن) و (الخالق) و (الرزاق) ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم (الله)، ووصفه بـ (الرحمن)؛ لأنه أخص وأعرف مِن (الرحيم)؛ لأن التسمية أولًا إنما تكون بأشهر الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

الشرح

قال أهل العلم: " ما كان مُحلى بـ (ال) فلا يُسمى به غيره – جل وعلا – "، فلا يُقال: فلان اسمه (السميع)، أو (العليم)، أو (الحافظ)، أو (الحكيم)، أو نحو ذلك، هذا لا يجوز أن يُسمى به، لا يُسمى به مخلوق.

وكذلك قالوا: " إذا قصد بالاسم الصفة "؛ مثل: الحكيم أو والحكم، ولذلك النبي – ﷺ – غيَّر كنية ذاك الصحابي، كانت كنيته (أبو الحكَم)، فغيَّرها النبي – ﷺ –؛ لأنه يُفهَم منه أنه يحسن الحُكم بين الناس ونحو ذلك، وهذا في إطلاقه لا يليق إلا بالله – جل وعلا –، ولأن أسماء الله – جل وعلا –، كما ذكرنا، أنها أعلامٌ وأوصاف، أوصافه تختص به – سبحانه –.

ما لم يكن كذلك فهو جائز، كأن يُسمى رجل (حكيم)، أو يُسمى (حافظ)، أو نحو ذلك.

وأما الأسماء التي لا يجوز أن تُطلق إلا على الله – جل وعلا –؛ فمثل: الرحمن، والرب، والله، والصمد، والمتكبر.

طيب، هل يجوز أن يُسمى الرجل جبار؟

قال أهل العلم: " لا يصح ذلك "، أي لا يصح أن يُسمى بهذا الاسم؛ لأنه مما يورث عنده صفات

الكبر، فإن هذا اسمٌ يليق بالله – جل وعلا –، أما العبد فلا يُسمى به، وهذا ما قرره الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله –.

المتن

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله – ﷺ – لِعَلي: ((اكتب ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم))، رواه البخاري، وفي بعض الروايات: ((لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة)).

الشرح

يقصدون به مسيلمة الكذاب، مسيلمة الكذاب كان ظهوره في عهد النبي – ﷺ –، وكان في جهة اليمامة مِن بني حنيفة، وقاتله بعد ذلك أبو بكرٍ الصديق – رضي الله عنه – في أحداث الردة، قاتله وقاتل معه الأسود العنسي، وقاتل طلحة بن خويلد الأسْدي فيما سُمي بحركات الردة.

فقالوا: " لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة "، وكما ذكر ابن كثير: أن مِن عقوبته أنه صار يلتصق به اسم الكذب، يُسمى مسيلمة الكذاب، لا يُذكر إلا بهذا اللصيق له.

المتن

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٠].

والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجُهَّال:

ألا ضَرَبَـــتْ تلـــك الفتـــاةُ هَجِينَهـــا ألا قَضَـــــبَ الـــــرحمنُ رَبي يمينهـــا

وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عَجِلـــتم علينـــا عَجْلَتينَـــا علـــيكُمُ ومـــا يَشَـــأ الـــرَّحمن يَعْقِـــد ويُطْلِـــقِ

الشرح

يعني هم يعرفون اسم الرحمن، لكنهم وقعوا في مصيبتين: وقعوا في الكذب، ووقعوا في نفي هذا الاسم عن الله - جل وعلا -؛ فجرَّهم ذلك إلى الضلال وإلى الانحراف، وإلا فإنهم يعرفون معنى (الرحمن)، ويعرفون اسم (الرحمن)، ويتداولونه بينهم كما ذُكر في أشعارهم.

المتن

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]

قال أبو جعفر بن جرير: معنى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾: الشكر لله خالصًا دون سائر ما يعبد مِن دونه، ودون كل ما برأ مِن خلقه، بما أنعم على عباده مِن النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلَّفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم مِن الرزق، وغذَّاهم به مِن نعيم العيش، مِن غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه مِن الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولًا وآخرًا.

وقال ابن جرير - رحمه الله -: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾: ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾. قال: وقد قيل: إن قول القائل: ((الحمد لله)) ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنى، وقوله: ((الشكر لله)) ثناء عليه بنعمه وأياديه، ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كُلًّا مِن الحمد والشكر مكان الآخر، وهذا الذي ادعاه فيه نظر؛ لأنه

اشتهر عند كثير مِن العلماء مِن المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفـــــادتكم الـــــنعماء منـــــي ثلاثـــــة يـــــدي ولســـــاني والضـــــمير المحجبـــــا

الشرح

يقول هو: " أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية "،أو يُقال: " وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم ".

نقف هنا وقفة يسيرة، هنا قال: " هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ".

فهذا مِن الفوارق بين الشكر وبين الحمد، أن الشكر يكون على المتعدية، أما الحمد فيكون على اللازمة وعلى المتعدية، تحمد الله على ما أنعم عليك، وتحمده – سبحانه – على صفاته، فهو المحمود – جل وعلا –؛ ولذلك عندما نقول: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] معناه أننا نحمد الله – جل وعلا – على ربوبيته، ونحمد الله – جل وعلا – على ألوهيته، ونحمد الله – جل وعلا – على أسمائه وصفاته، ونحمد الله – جل وعلا – على قضائه وشرعه، ونحمد الله – جل وعلا – على نعمه، كل أنواع هذه المحامد يستحقها الله – جل وعلا –، وكلها ما يتعلق بالتوحيد، وما يتعلق بأوامره ونواهيه – سبحانه –.

لكن لا يُقال: يعني يُشكر على ربوبيته؛ وإنما يُشكر – سبحانه وتعالى – على ما تعدى مِن نفعٍ للعباد، ولذلك قال الله – عز وجل –: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، أي: مما أعطيتُكم، لأزيدنكم عطاءً، ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

المتن

ولكنهم اختلفوا: أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعم مِن الشكر مِن حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: " حَمدته لفروسيته، وحمدته لكرمه "، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا بالقول.

الشرح

" لا يكون إلا بالقول " يعني أن الحمد متعلق بجارحة اللسان، بينما الشكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بالجوارح، ومن هذه الناحية أعم.

لكن الحمد مِن ناحية تعلقه بالصفات المتعدية واللازمة أعم مِن الشكر، فالشكر أخص لأنه متعلق فقط بالمتعدية، بينما الحمد متعلق باللازمة والمتعدية.

لكن بالنسبة لفعل الحمد أو فعل الشكر، فإن الحمد أخص لأنه متعلق باللسان، والشكر أعم.

أفـــادتكم الـــنعماء منـــي ثلاثـــةٌ يـــدي ولســـاني والضـــمير المحجبـــا

المتن

والشكر أعم مِن حيث ما يقعان به، لأنه يكون بالقول والعمل والنية - كما تقدم -، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إليَّ. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم.

وقال الجوهري: الحمد نقيض الذم، تقول: حَمِدت الرجل أحمده حمدًا ومحمدة، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ مِن الحمد، والحمد أعم مِن الشكر. وقال في الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه مِن المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له، وباللام أفصح.

الشرح

"هو الثناء على المحسن بما أولاه مِن المعروف"، إذن ما فيه شيء متعدّي النفع للإنسان، فلذلك تشكر الإنسان، تشكر المخلوق إذا أدى إليك معروفًا، ولذا جاء في الحديث: ((لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس)).

وللفائدة: ضُبط لفظ (الله) ولفظ (الناس) كلاهما مرةً بالرفع ومرةً بالنصب، ولها معاني في ذلك، فلا يشكر اللهَ مَن لا يشكرُ الناسَ، لا يشكر اللهُ مَن لا يشكر الناسَ، لا يشكر اللهَ مَن لا يشكر الناسُ، وبسط هذا الكلام الشوكاني في أدب الطلب في ذكره لهذا الحديث.

المتن

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل: عن الأسود بن سريع، قال: قلت: يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي - تبارك وتعالى -؟ فقال: ((أما إن ربك يحب الحمد))، ورواه النسائي.

وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله - ﷺ -: ((أفضل الذِّكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله))، قال الترمذي: حسن غريب.

وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر: أن رسول الله - ﷺ - حدثهم: ((أن عبدًا مِن عباد الله قال: يا رب، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء، فقالا: يا ربنا، إن عبدكَ قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله - وهو أعلم بما قال عبده -: ماذا قال عبدي؟ قالا: يا رب إنه قد قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها)).

الشرح

الحديث الأول حسَّنه الشيخ الألباني – رحمه الله –: ((أما إن ربك يحب الحمد))، وهذا الحديث؛ حديث ابن عمر فيما رواه ابن ماجه فيه ضعف.

المتن

والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله – تعالى –، كما جاء في الحديث: ((اللّهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله)) الحديث.

و((الرَّبُ)) هو: المالك المتصرف، ويُطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله – تعالى –. ولا يُستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة تقول: رب الدار، رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله – عز وجل –، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم.

الشرح

هو لا يُستعمل الرب لغير الله، ومصدره الربوبية، وأما مصدر كلمة (رب) إذا استُعملت للمخلوق فليست الربوبية، وإنما الرِّبَاية، الرِّباية للمخلوق، والربوبية لله – جل وعلا –، ولا يُقال عن العبد: الرب، وإنما يُقال عنه، أو يُضاف، يكون على سبيل الإضافة، فيُقال: رب الدار، رب البيت، ونحو ذلك.

المتن

و((العالمين)): جمع عالَم، وهو كل موجود سوى الله – عز وجل –، والعالم جمع لا واحد له مِن لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات في السماوات والأرض في البر والبحر، وكل قرن منها وجيل يسمى عالمًا أيضًا.

الشرح

لا مُفرد له، أو " جمعٌ لا واحد له مِن لفظه، أو لا مفرد له مِن لفظه ".

وبعضهم قال: " العالمين هذه مِن الكلمات التي جاءت في الإسلام "، وفي هذا نظر؛ لأن الله – عز وجل – ذكر هذا في خطابه لبني إسرائيل، أو في كلامه لمريم، أو في غير ذلك، فهذا مذكور.

والمراد به: الموجودون مِن خلق الله – سبحانه وتعالى – مِن الجن والإنس، فربُّ العالمين: خالقهم جميعًا، ومدبر أمورهم، والمتصرف في هذا الكون العلوي والسفلي.

المتن

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ٣].

وقوله: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ تقدم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن إعادته.

قال القرطبي: إنما وصف نفسه بـ ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾، بعد قوله: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]؛ ليكون مِن باب قرن الترغيب بعد الترهيب، كما قال تَعَالَى: ﴿ نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحِجْرِ: ٤٩-٥٠]، وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الأنعام: ١٦٥]، قال: فالرب فيه ترهيب، و ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ترغيب.

وفي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العقوبة ما طمع في جنته أَحَدٌ، وَلَوْ يعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِن الرحمة ما قنط مِن رحمته أحد)).

الشرح

وعمومًا أمر الترغيب والترهيب هو الأمر الذي يعيش به الإنسان في تعبده لله – جل وعلا –، فهو دائمًا بين خوفٍ ورجاء، فإذا غلب عليه جانب الرجاء ترك العمل، وإذا غلب عليه جانب الخوف قنط مِن

رحمة الله – جل وعلا –؛ فأفسد عليه دينه، وأفسد عليه دنياه، وإنما الإنسان في هذه الدنيا كطائر له جناحان، جناحٌ فيه الخوف، وجناحٌ فيه الرجاء.

لذلك لما زار النبي – ﷺ – أحد الصحابة وهو مريض، قال: ((كيف أجدكَ؟ قال: أرجو الله، وأخاف ذنوبي، فقال النبي – ﷺ –: ما كانت لعبدٍ في مثل هذا الموضع إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمَّنه الله مما يخاف)). وهكذا الواجب على المسلم.

لكن ذكر أهل العلم أن الإنسان إذا ما حصل منه ضعف وفتور ونحو ذلك، غلَّب شيئًا مِن الخوف؛ لأن هذا يُرجعه، وإذا ما حصل عنده مزيد مِن العبادة، كان عنده مِن الرجاء، ودائمًا الإنسان في علاجٍ مع نفسه، وفي مجاهدةٍ لها.